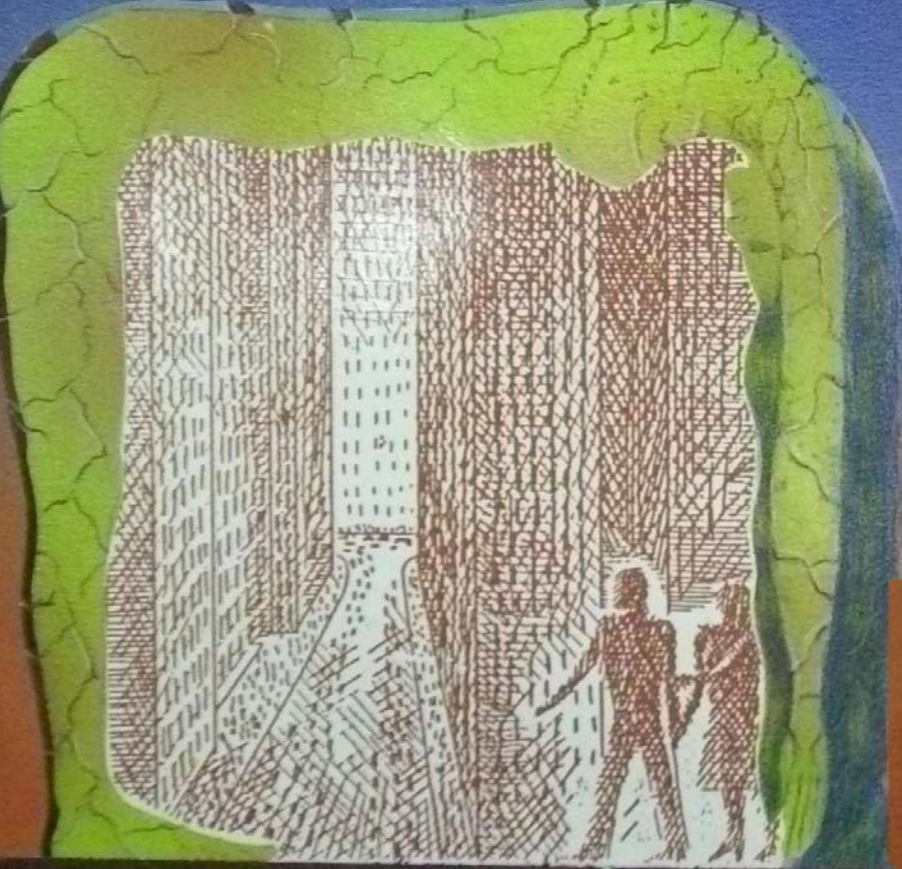
قصة يوطوبيا

حسن فتحي



* الأربعينات *

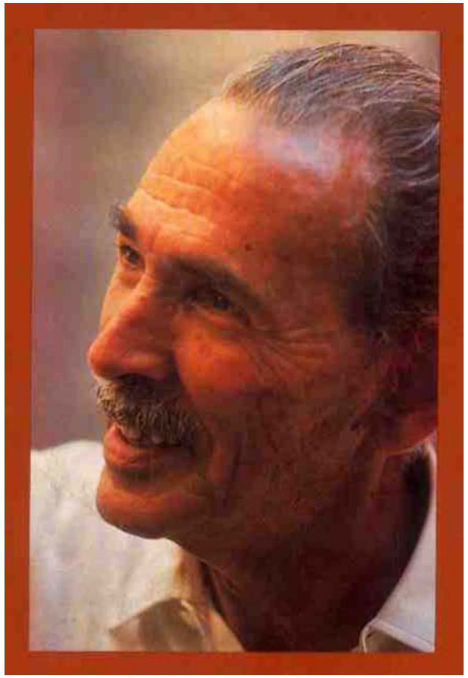
هذا الكتاب

لم يكن حسن فتحي فقط مهندساً معمارياً فذاً عمّت شهرته كل أنحاء العالم، وتُرجمت كتبه إلى كل اللغات الحيّة. بل كان أيضاً قصصياً كبيراً وفيلسوفاً كبيراً، يسكنه دائماً هاجس العمارة.

فهو يعالج موضوعه اجتماعياً، ويعالجه أكاديمياً ويعالجه مسرحياً، وكذلك يعالجه فلسفياً. و«قصة يوطوبيا» هي المعالجة الفلسفية لموضوع العمارة. إنها قصة رجل وامرأة يبحثان عن بلاد يوطوبيا، أي بلاد السعادة أي بلاد المدنية الفاضلة التي سمعا عنها. فيلاحقاها عبر البلاد البيضاء والصفراء والزرقاء والحمراء والخضراء، ويكتشفا أن كل هذه البلاد تفتقد إلى المادة الشفافة أي إلى السعادة وبالتالي فهي ليست بلاد يوطوبيا.

ليستنتج بالنهاية أن الذي يبحث عن حجر الفلسفة في هذا الموضوع لا يلتقي بلاد اليوطوبيا بل يفقدها قبل الوصول بقليل.

الناشر



موقع حسن فتحى

www.geocities.com/arc.hassanfathy

كتبت هذه القصة باللغة الفرنسية بعنوان "Le Pays d`Utopie"
و نشرت فى مجلة " La Revue du Caire ".

يوطوبيا

حقوق الطبع محفوظة للناشر

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

بيروت - لبنان

ص.ب - ٨٣٧٥

هاتف: ٨٦٢٤٣١ - ٨٦٥٤٠٧

تلكس - ٢٢٦٦١

فاكس - ٠٠٣٥٧٩٥٢٢١٠٧

بناية الوهاد - شارع جان دارك - بيروت

الطبعة الأولى

١٩٩١م - ١٤١١هـ

دار فينش

رسم وتصميم الغلاف : جورج سرياو

يوطوبيا

كان هناك رجل عالم من سكان
غاصمة العواصم يبحث عن الحقيقة ،
وجد هذا الرجل مخطوطا قديما ذا غلاف
من رق الغزال جميل لدى تاجر
"عاديات" وكان مكتوبا على
الغلاف بلغة قديمة غريبة " قليل من
يستطيع فك رموزها اليوم "
" بلاد يوطوبيا "

كان الرجل عليما باللغات
القديمة ومنها هذه اللغة . كما كان
عليما بكل العالم . إنه سمع ببلاد

يوطوبيا هذه على أنها أسطورة فهل يمكن أن تكون حقيقة .

ولذا لم يتوان في اقتناء هذا المجلد الغريب .

أخذه متلهفا على دراسة محتوياته . إلا أنه فوجئ حين عكف عليه إذ طالعه في صفحة التصدير في حروف كبيرة التحذير التالي :

حذار يا من يقع في يدك هذا السفر أن تفتح من صفحاته إلا واحدة كل يوم إذا بدأت المسير وكنت راغبا حقا في الوصول إلى بلاد يوطوبيا . وسوف تجد مرصودا بتلك الصفحة رحلة يومك من مطلع الشمس حتى مغيبها .

فإن فعلت فإن الكتاب سيقودك إلى تلك البلاد . بلاد المادة الشفافة حيث ترى الحقيقة من خلالها وحيث الناس كلهم سعداء .

أما إذا عصيت وتركت حبّ الاستطلاع يقودك إلى التسرع فتقلب أكثر من صفحة يومك . أو حملك إغراء ما قد يصادفك في الطريق - بالغة ما بلغت غرابته على الحيد عن بلوغ هدف يومك المرصود أو على التباطؤ في بلوغه قبل مغيب الشمس فإنك ستفقد طريقك إلى الأبد حيث أن هذا السفر مقدر في الزمان كما هو في المكان .

حزم الرجل أمره على الرحيل تبعا

لتعاليم الكتاب.

كانت هناك امرأة من سكان عاصمة العواصم. وكانت جميلة حقا. أبهاء دارها الفخمة محج القادة والعظماء والنابهين من أهل الفن ورجال العلم والسياسة إلى جانب أهل الظرف والكياسة من سكان عاصمة العواصم.

وكان النساء كلهن يحسدنها ويغرن منها. لكنها لم تكن سعيدة. أنشأت المؤسسات الخيرية لمساعدة الفقراء. وكل ذلك لم يزل عنها السأم المستحوذ عليها. ولم يسد الفراغ الذي كانت تحسه شاغرا في نفسها طول الوقت. إنها كانت تبحث عن الحقيقة هي الأخرى.

أخذت بخبر تلك الرحلة التي عزم الرجل على القيام بها إلى يوطوبيا. فراحت تطلب إليه أن يأخذها معه إلى تلك البلاد.

ويخال أنها كانت تكن "للرجل المحبة"

عبثا حاول الرجل أن يثنيها عن عزمها على المخاطرة بمشاركته في تلك الرحلة إلى المجهول إذ كانت ذات عزيمة راسخة وجرأة كبيرة.

ويخال أن الرجل كان يضمر لها المحبة أيضا ولذا قبل أخيرا أن يصحبها معه.

بدآ رحلتهما باستطلاع أولى صفحات

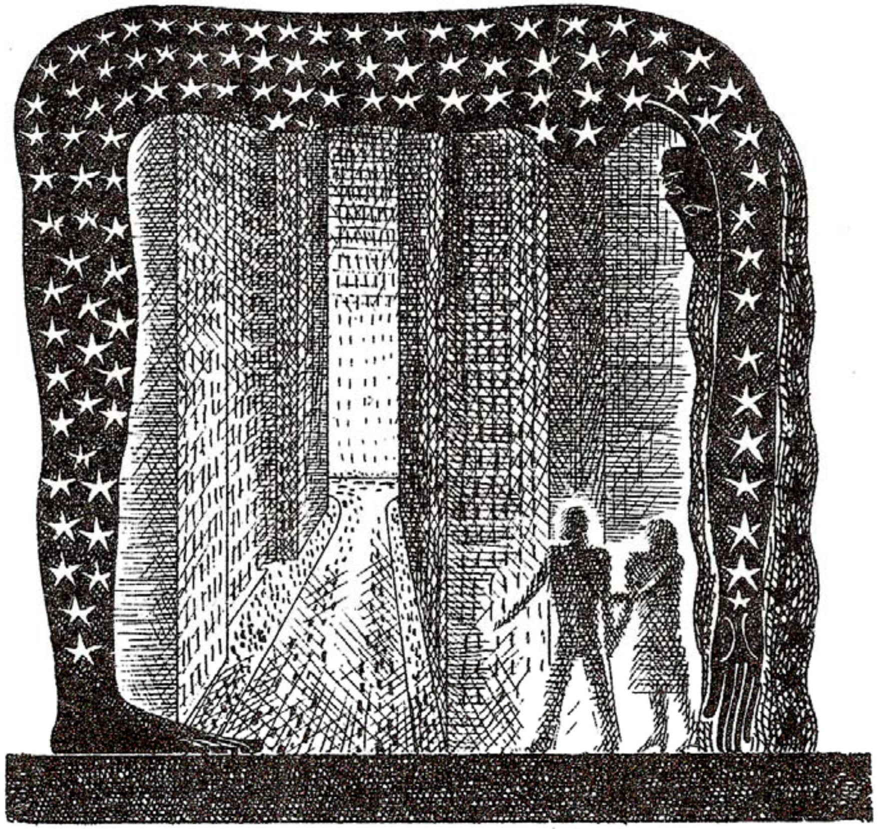
السفر القديم ، تخبر عن البلاد البيضاء حيث امتزجت جميع ألوان قوس قزح بعضها ببعض فصارت جميع المرئيات بيضاء .

تتبعا الطريق المرسوم خلال مدن كبيرة لا أشجار فيها ، منازلها عالية جدًا بحيث تحجب السماء .

كانت تلك المدن مزدحمة حتى درجة أن كان الناس يسكنون أجزاء صغيرة من المنازل يسمونها "شققا"

وجدا أهل البلاد البيضاء مترفين غاية الترف كان لكل فرد منهم شقة وسيارة وثلاجة كهربائية وراديو وفرن كهربائي للخبز وطهي الطعام .

كانوا يشتغلون طوال يومهم بمكاتب تضاء بالكهرباء ليحتفظوا بهذه الشقق



التى لم يكن نظام عيشتهم هذه تتيح لهم الفرصة للاستمتاع بسكناها إذ كانوا يشتغلون جميعا رجالا ونساء ، فكانوا مضطرين لتناول وجباتهم فى المطاعم العامة ، وعند الانتهاء من أعمالهم يمسون فى حالة من الإرهاق تجعلهم يقصدون دور تمثيل مظلمة للترفيه عن أنفسهم أو يرتادون النوادى الليلية ليرقصوا ، ثم يرقصون حتى يغلبهم الأعياء ، فيأوون إلى مساكنهم هذه آخر الليل ليناموا بضع ساعات ثم يستأنفون فى اليوم التالى نفس النظام الرتيب .

لم يكن الناس سعداء ، ولم تكن المادة شفافة فى البلاد البيضاء ، فهذه إذن ليست بلاد يوطوبيا .

قلب الرجل والمرأة الصفحة التالية من السفر القديم.

تخبرهم عن البلاد الصفراء .

كانت شمسها ساطعة ، بها قصور ومنازل قديمة جميلة مبنية بالحجر الأصفر المنحوت ، إلا أن أهل البلاد الصفراء كانوا جميعا متشحين بالسواد .

دهش الرجل والمرأة حين وجدا الناس يهدمون المنازل والقصور القديمة الجميلة ، ويقيمون مكانها بيوتا مسيخة من (الخرسان) لا شكل لها وكأنها علب الثقاب ، وبالاستفهام عن هذا الأمر الغريب قيل لهما أن الزعماء وعدوا كل رجل من أهل البلاد سيارة وراديو وثلاجة كهربائية وفرن كهربائى للخبز والطبخ مما لا يتفق وطراز هذه

المساكن العتيقة التي كانوا يهدمونها .

وجد الرجل والمرأة أن الزعماء
بـ لا من أن يعطوا ما وعدوا به أهل البلاد
الصفراء من هذه المستحدثات . ركبوا
ببيوتهم الحديثة هذه ميكروفونات .
ليستمعوا إلى كل ما يقولون حتى همسات
الحبّ بين رجل وزوجته أصبحت مسموعة
لدى الزعماء .

فأبطل الناس لغة الحبّ .

لم يكن الناس سعداء ، ولم تكن
المادة شفافة في البلاد الصفراء .

فهذه إذن ليست بلاد يوطوبيا .

قلب الرجل والمرأة الصفحة التالية
من السفر القديم .

تخبرهم عن البلاد الزرقاء .

الطقس كان باردا والجو ملبدًا
بالضباب والضوء أزرق قاتمًا فأصبحت
كل الكائنات زرقاء ولذا كان
أهل البلاد الزرقاء مرهفي الإحساس
أعصابهم متوترة على الدوام يخشون الشذوذ
ويحبون التماثل والنظام ولذا وضعوا
خمسة وعشرين قاعدة عامة لآداب السلوك
يتبعها الجميع من خالف إحداها أفرغوا فيه
جام نقمتهم المكبوتة إذ في ذلك
ما يجعلهم يفكرون في أنفسهم
كأفراد ترهقهم قتامة الجو .

لم تكن منازلهم عالية كمنازل
البلاد البيضاء ، كلّها متشابهة لا يفرق

الناظر فيها بين منزل وآخر، ولذا وضع أهل البلاد لوحات صغيرة تحمل أرقاما على أبواب بيوتهم يتعرفون بها عليها. إلا أن الضباب كان كثيفا بحيث جعل من العسير قراءتها على أهل البلاد.

فكانوا يهاجرون إلى بلاد الغير حيث تسطع الشمس فيمكنهم قراءة اللوحات لكنهم حين يدخلون المنازل يجدون أنها ليست بيوتهم وأن القوم لا يتبعون الخمس والعشرين قاعدة لآداب السلوك. فيزعجهم ذلك أشد إزعاج.

ولذا كانوا جميعا مصابين بالحنين إلى الأوطان. لم يكن أهل البلاد الزرقاء سعداء ولم تكن المادة شفافة.

فهي إذن ليست بلاد يوطوبيا.

قلب الرجل والمرأة الصفحة التالية من السفر القديم

تخبرهم عن البلاد الحمراء

كان الضوء أحمر مما جعل المرئيات كلها حمراء، سوى الدم والورد الأحمر الذين كانا أبيضين.

البلاد كانت شاسعة الأرجاء والمدن نادرة إلا أن القوم كانوا ينشئون مدنا كبيرة بسرعة كالمجانين ويبنون بيوتا عالية ينقلون رسومها عن نماذج "ومشوقات" استحضروها من البلاد البيضاء.

حرمت عليهم آلة الراديو في البيوت، فركب لهم الزعماء بدلاً منها مكبرات للصوت في

الشوارع والحارات .

لم يكن مصرحا للناس أن يستعملوا في كلامهم سوى جمل وأقوال سائرة محفوظة فرضها عليهم الزعماء ، من أخطأ فيها اختفى في طرفة عين ، ولم يعد يظهر له أثر ولذا اقتصر الناس على ترديد نفس الجمل الساذجة كالببغاوات حتى يأمنوا ذلك المصير الرهيب .

لم يكن الناس سعداء في البلاد الحمراء ، ولم تكن المادة شفافة .

فهي ليست إذن ببلاد يوطوبيا .

قلب الرجل والمرأة الصفحة التالية من السفر القديم .

تخبرهم عن البلاد الخضراء .

وجدا البلاد الخضراء صحراء قفرا شاسعة الأرجاء ، كلها صخور ورمال من كل الألوان سوى اللون الأخضر .

جبالها أطلال مدن وقرى ، ظهر هنا وهناك طرف معبد أو وثن مهشم أو برج بارز من بين الركام .

ولذا بدا اسم البلاد مستغربا لدى صديقينا غير أن السبب وضح لهما بما ورد في السفر القديم حيث يقول :-

كانت البلاد الخضراء كلها حقولا وبساتين ، يقطنها قوم كانوا جد سعداء ، لديهم كل ما يحتاجون إليه ويشتهون من شمس دافئة وأزهار وفواكه وقمح وبقول .

والجولطيف والناس نشطون يعملون في الحقول والبساتين ، أجسامهم سليمة قوية ، إلى أن جاءهم رجل اخترع آلة من الحديد تعمل بدلاً من الإنسان والحيوان .

انزلق أهل البلاد الخضراء ، وتركوا الآلة تعمل في الحقول والبساتين والمنازل بدلا منهم ، وتركوا جشعهم يعمي أبصارهم فانقضوا على الأرض يخرجون منها كل ما أمكن تلك الآلة استخراجه . وكان نتاجها في ذلك المضمار كبيرا ، إذ كانت تعمل ليل نهار دون أن تنام أو تقف لتستريح لأنها كانت بلا روح ولا قلب .

فامتصوا بها كل طاقة الأرض الموزعة على السنين كلها في عام أو أقل من عام دون أن يردوا إليها ما لهم عليها كما كانوا

في السابق يعملون ، إذ كان غذاء الآلة النار وفضلاتها الغاز الخانق . فأجدبت الأرض ، وانقرضت الدواب .

فحرم الناس من اللحم والألبان ، ولذا قرر الزعماء إعطاءهم بدلا من الخبز والزبد الخبز والرصاص ، حيث لم تكن تلك الآلة لتنتج الزبد بينما يمكنها صنع الرصاص بالملايين .

تعسر هضم الناس للرصاص ، فأصيبوا بأمراض المعدة والأمعاء ، وكثر تعاطيهم للأدوية المرة والأملاح الكريهة الطعم ، ليهضموا ذلك الرصاص الذي كان يفخر أهل البلاد بتعاطيه علانية أمام بعضهم بعضا بينما كانوا يمتنعون عن أكله في السر والخفاء .

ازداد امتناع الناس عن تعاطي الرصاص ،

ووصل علم ذلك إلى الزعماء ، فغضبوا عليهم ومنعوا الخبز عنهم ، وأعطوهم الرصاص وحده ليأكلوا .

اشتدت الحال بالناس حتى أمست أمراض المعدة والأمعاء وباءً عامًا أهلكهم وزعماءهم أجمعين .

إلا أنه بقى من أولئك القوم التعساء رجل فلاح وزوجه كانا يعيشان فى أحد الوديان النائية بين الجبال التى تقع على أقصى حدود بلاد قوس قزح .

لم يكونا قد أحاطا بما حل بجنسهما فظلا عائشين بسلام فى واديهما الذى ظل أخضر منذ مبدأ الأجيال .

كانا سعيدين لديهما كل ما يحتاجان ويشتهيان من شمس دافئة وأزهار وفواكه وقمح

وبقول ، يحبان بعضهما بعضا قانعين بكوخ لهما جميل بنياه منذ قديم ، فلم يفكرا فى ترك واديهما يوما من الأيام .

وكان كوخ هذا الفلاح هو آخر مطاف اليوم للرجل والمرأة عليهما أن يصلاه قبل مغيب الشمس حسب ما كان مخطوطا بالسفر القديم ، ولذا كانا جادين فى سيرهما إليه ، ولكن لاحظا أن مرتقى الجبل يزداد وعورة كلما تقدما فى سيرهما نحوه وسرعان ما أدرك المرأة الكلال كما أن الحذاء ذا الكعب العالى الذى كانت تنتعله قد قرح قدميها وأذاها أشد إيذاء .

ولكنها تجلدت وواصلت المسير خشية ضياع الوقت ، وقد أذنت الشمس بالمغيب ، هذا إلى أنه كان يحزنها أن تظهر ضعفها أمام الرجل وقد

جهدت دائما أن تظهر منه مظهر الند للند .

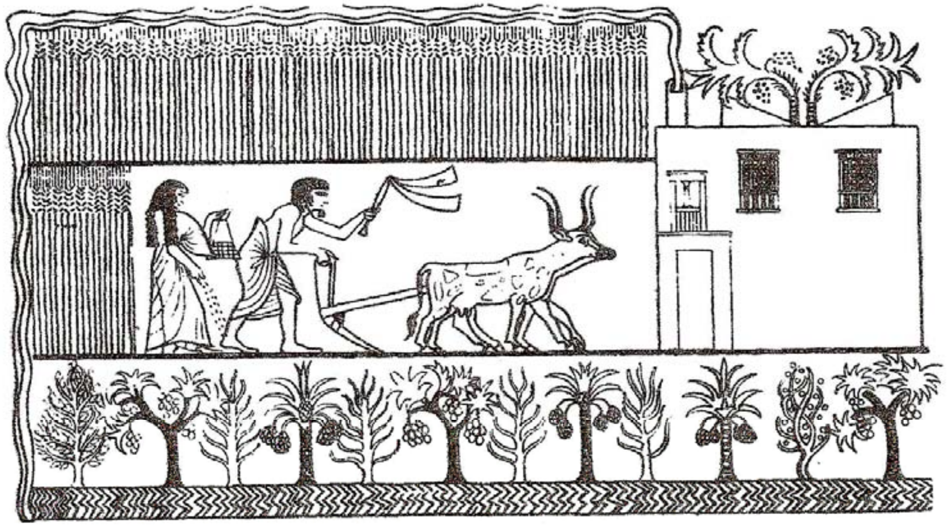
غير أنها ناءت أخيرا ولم تعد تقوى على المواصلة فسقطت على الارض باكية .

هوّن الرجل عليها وقدّم لها حذاءه هو وأنه لقادر أن يسير حافى القدمين .

أضحكها عرضه مع ما بها من آلام ، للبون الشاسع بين حجم حذائه الكبير وحجم قدميها الدقيقتين كما وأن حذاءه ثقيل لا تقوى على السير به وهى فى جهد وإعياء .

ولما كان عليهما أن يصلا إلى الكوخ بلا إبطاء ، اضطر الرجل فحملها على كتفه ، وفى يديها حذاؤها وكأنها طفل صغير .

وفى وضعها هذا ظهر لها الوادى الأخضر بعد قليل ، وفيه الكوخ الجميل ، فأخبرته



بذلك فتهلل للنبأ واستجمع قواه . أعطاها السفر وأرشدها لتنظر ما إذا كان هذا الكوخ هو المقصود إذ ما كان يستطيع الرؤية وهو يرزح تحت حمله بحيث أكب رأسه إلى الأرض وحذّرها من أن تفتح خلاف الصفحة التى عليهما أن يطالعاها فى هذا اليوم .

فطمأنته بأنها أشد حرصا منه على اتباع التعليمات.

ولما قارنت الصورة المرسومة بالسفر القديم
على الكوخ أخبرته أنه هو بعينه ، حتى فى أن
الدخان الذى يخرج من المدخنة كانت نحو
الشرق تدفعه الرياح .

فانتعشت قوة الرجل وحث السير إلى
أن بلغا الكوخ قبل المغيب بقليل وهناك
طرقت المرأة الباب فخرجت امرأة الفلاح التى
اندهشت لرؤيا صديقينا على هذا الوضع
العجيب ، فاستدعت زوجها ليستقبل
هؤلاء الغرباء .

سر الفلاح برؤية أول أناس من خارج أفقه
المحدود ، ودعاهما إلى الدخول .

ولما شرح الرجل للفلاح سبب حمله
المرأة ، عرضت الفلاحة أن تستبدل بحذائها

البسيط حذاء المرأة ذا الكعب العالى فقد بهرها
وأعجبها أيما إعجاب .

فرحت المرأة بهذا العرض وتمت
المبادلة وسرى المرح بينهم حين تعثرت
الفلاحة عند السير فى حذاء المرأة ذى الكعب
العالى مما لم تعتد عليه .

كان أهل الوادى الأخضر
هذان سعيدين ، لكن المادة لم
تكن شفافة ، إذن فالوادى الأخضر
ليس بلاد يوطوبيا .

وعند الصباح استأذن الرجل والمرأة
من مضيفيهما فى الرحيل .

وقلبا الصفحة التالية من السفر
القديم .

تخبرهما عن بلاد ما فوق قوس قزح .

وحالما تخطيا الحدود وجدا تلك البلاد جبلية وعرة ، كما وجدا أن المادة بدأت تصبح شفافة . وكلما ارتقيا كلما زادت المادة شفافية .

وبدأت الطبيعة تكشف لهما عن أسرارها من خلال الأحجار والأزهار ووضحت للمرأة حقائق كثيرة عن علم طبقات الأرض وعلم النبات مما لم يكن في مقدور أساتذتها في المدرسة تعليمها إياه ، فسرت بسدّ تلك الثغرة التي كانت تشعرها بالنقص عن الرجل في التعليم كل السرور .ـــ

وزعمت أنهما أصبحا نخبين صنوين ، فكان حبها له في تلك اللحظة أكبر منه في أي وقت كان ، إلا أنهما بارتقاء الجبل وصلا إلى حيث وقفت معلومات المدرسة عن إسعاف المرأة بفهم تلك الحقائق التي بدأت تتعاقب بسرعة فائقة

فاختلطت عليها الامور من جديد .

فهذه قوانين الكيمياء والديناميكا والهدرولوجيا وعلم النفس والفسيولوجيا وباقي العلوم بدأت تظهر خفاياها لهما .

ضايق المرأة أن رأت الرجل يستعمل الاصطلاحات العلمية في تعبيراته عن أبسط الأمور مما كان مستغلقا عليها ظنته يتعالم حين طلب إليها وهما يعدان طعام الغذاء أن تحضر له ما فهمت أنه رغيف عيش في معادلة فسيوبيوفيزيكوكيميائية .

قالت في شبه سخرية ، أما كان الأبسط ان تقول اعطني الخبز بدلا من كل هذا التعقيد ، فلم يجب . غير أنه لما كانت خفايا علم النفس أيضا بدات تجعلهما يستطلعان أفكار بعضهما بعضا دون أن يفصحا عنها بالكلام فقد نشأ بينهما عن ملاحظتها عليه مشادة صامتة . مشادة بلا كلام . آلمها من الرجل أن رأته يعتبرها "بورجوازيه" غير أهل للتحدث بلغة العلم لسخريتها من تسميته رغيف العيش باسمه الفسيوبيوفيزيكوكيميائي .

كما آلمه أن بدا له أنها تعتبره نفسها بدورها بأنه وإن أسمى الخبز بهذا الاسم المعقد الطويل، إلا أنه حائر في تصنيف وجبة الغذاء طبقا لما انفتح أمامه هو الآخر من حقائق علمية جديدة أربكته فلم يعد يدري ماذا يفعل بتلك الأملاح والأحماض والبروتينات والنشويات والفيتامينات من الألف إلى الياء وما يقابلها من عصارات وإفرازات غدد وتفاعلات ليحولها الجسم إلى خلايا وأنسجة بقدر معلوم خارق في تدبيره.

آلمها أنه لما أحس بضعفه حنق، فتمنى لو أنها ما كانت معه لتهزء من عجزه على هذا المنوال.

فسارا متخاصمين لا يتحدثان.

وبدون تفكير أخذت المرأة تترنم بأغنية في صوت منخفض، وإذا بها ترى الرجل في دخيلة نفسه مستهجنا لهذا اللحن بسبب خطأ في النسب الحسابية للمتواليات الموسيقية للأغنية لعيب في حبالها الصوتية.

غصت المرأة لذلك، إذ توهمت أن الرجل قد انقطع

حبه لها، فقد كان يستطيب غناءها لهذه الأنشودة بعينها ويحب منها ذلك العيب في حبالها الصوتية.

ولعل ترنيمها لهذه الأغنية دون وعي كان منها عرضا للصلح لإنهاء تلك المشادة الطارئة بينهما فأتى رفض الرجل واستهجانه لأغنيتها ما نكأ جرح شعورها.

فسكتت عن الغناء وازداد بينهما الجفاء.

استمرا في ارتقاء الجبل متخاصمين إلى أن اقتربا من منطقة الثلوج وقد ازدادت المادة شفافية فبدآ يريان الذرات والالكترونات التي تكون المعادن والأحجار.

واستطاع الرجل أن يحول النحاس إلى برونز والحديد إلى صلب والزنك إلى صفيح حتى اعتقد أن الخطوة التالية هي أنه سيحول الرصاص إلى ذهب، ويصل بذلك إلى حجر الفلسفة الذي أعجز إيجاده الأقدمين.

استهواه أنه إن وجده فسيرجع إلى الناس ليعطي الذهب إلى الفقراء فيصبح الناس كلهم أغنياء ويرفع عنهم التعاسة

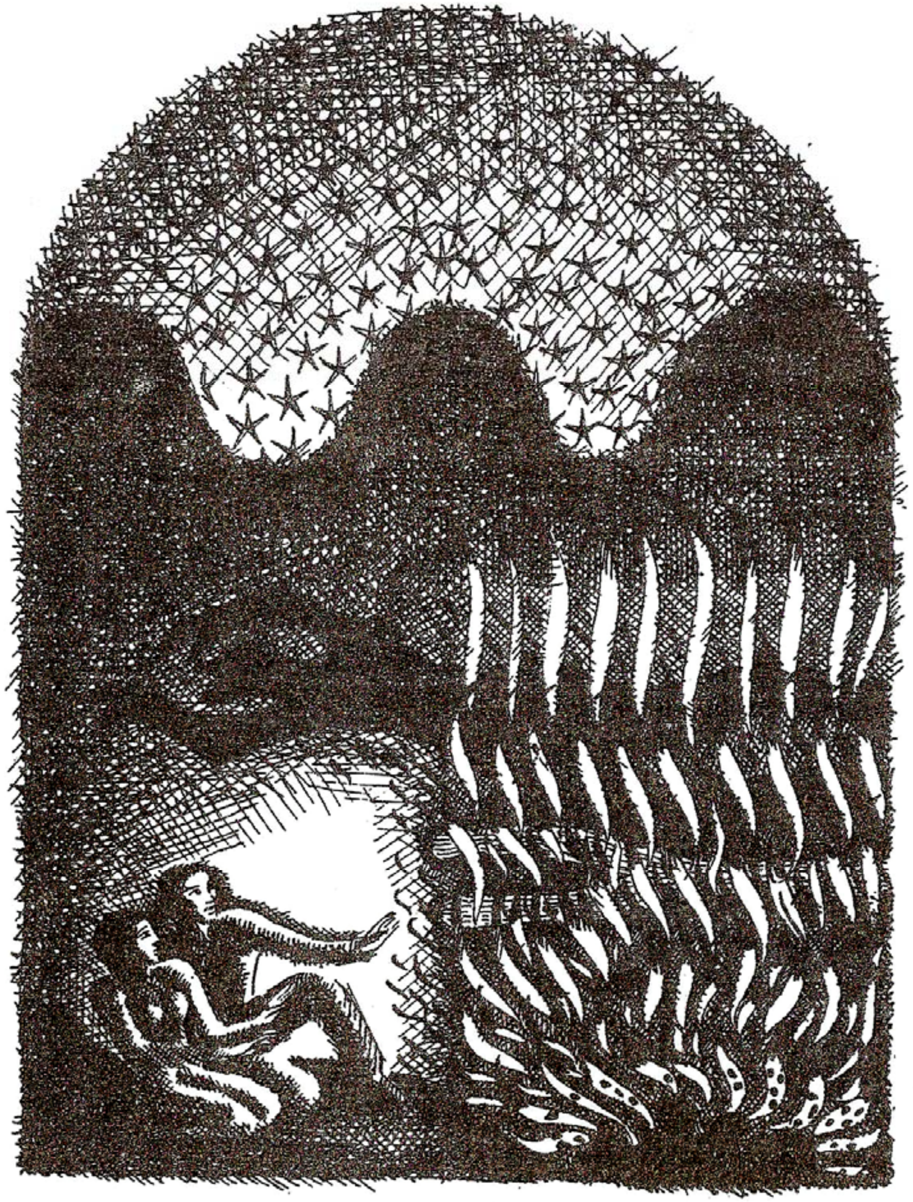
ويجعلهم كلهم سعداء .

أعجبت المرأة بهذه الفكرة الخيرية وشاركت الرجل في خلط المعادن والأحجار وألهاهما ذلك عن إدراك آخر مطاف اليوم الذي كان تلاًّ من الثلج مرسوما بالسفر القديم . بدا لهما عند مبدأ الثلاجات .

لكنهما أضاعا الوقت وغابت الشمس تاركة إياهما في الظلام .

فأخذا يجاهدان في المسير، إلا أن الإعياء كان قد أخذ منهما كل مأخذ فقررا المبيت في مكانهما إلى الصباح .

كان البرد شديدا ، فأوقد الرجل نارا ليستدفئا ، وعلى ضوئها رأيا منظرا أزعج المرأة أيما إزعاج ، إذ كان ملقى بالقرب منهما جذع شجرة سقط ظله على الجبل فبدا وكأنه ظل رجل منبطح له قرون الماعز يتحرك أو أنه عفريت .



طمأن الرجل المرأة بأن حركة الظل إنما
هي حركة اللهب وليست لهذا الجذع المتروك .

بدأت النار تخبو قليلا ، فاشتد البرد عليهما ،
فأخذ الرجل "بلطته" وذهب إلى الجذع يقتطع منه
خشبا للوقود ، إلا أنه حين ضربه بها كادت
"بلطته" تتحطم وسمع لضربته رنينا معدنيا ردّد الجبل
صداه إلى بعيد .

لقد كان الجذع متحجرا أصلب من حجر الصوان .

فاستحوذ عليهما اليأس ، وكان في قلبيهما
بعض الحسرة على هذا المصير ، فعمد إلى التماس الدفء
تحت أغطيتهما ملتصقين ، فأنستهما حرارة جسميهما
كل ما حواليهما ما عدا حبهما الكبير ، فناما حتى الصباح
ثم استيقظا في اليوم التالي وأعدّا إفطارا بسيطا ذا اسم
على معقد ضخم كبير . وبينما هما إليه اذا بفارس

جميل يطالعهما ، ولم يلحظا قدومه إلا وهو يتخطى الجذع
المتروك في طريقه إليهما .

بادرهما الفارس وأقرأهما السلام في أدب جم
وكياسة تليق بالفرسان ، فردا عليه التحية بأحسن
منها ودعواه للإفطار ولكنه اعتذر بأنه قد تناول
إفطاره منذ قليل ، وسأل الرجل عما أتى بهما إلى هذه
المفاوز وإلى أين هما ذاهبان .

فأجابه بأنهما يقصدان بلاد يوطوبيا ويخال
لهما أنهما ليسا منها ببعيد .

فضحك الفارس قائلا أنه ليس هناك مكان
بهذا الاسم على الاطلاق .

فأجاب الرجل بأن السفر القديم يقول بوجود
يوطوبيا هناك وراء الثلوج .

رد الفارس بأن ليس وراء الثلوج سوى الهاوية التي

ليس لها قرار..

سأل الرجل من أين له علم هذا، فأجاب بأنه
رمى الأحجار وراءها فلم يسمع صوتا لاصطدامها بالقاع
وشفع قوله بأن أخذ حجرا رماه بكل قوته عبر الثلوج
وأنصت لاصطدامها الجميع فما سمعوا صوتا لسقوطه،
وكأن الهاوية ابتلعته أو تبخر في الهواء.

قال الرجل: لكن يوطوبيا ليست حيث
رميت الحجر بل تقع هناك وراء هذا التل مشيرا إلى مكان
التل الذي كان هدف يومهما السابق، إلا أنه فوجئ
بأن رآه قد زال ولم يعد هناك.

عكف الرجل على السفر القديم ليفتح الصفحة
التالية فوجدها بيضاء لا تحتوي على شيء. قلب
الصفحات التي بعدها فوجدها كلها بيضاء خالية.

جزع الرجل وقال لقد خالفنا التعاليم وجربنا

وراء حجر الفلسفة بدلا من اتباع الطريق المرسوم.

قال الفارس الجميل مبتسما، عجبا لعالم يركن
الى خريطة قديمة ليصل إلى تل من الثلج مع علمه
بأن الثلاجات دائمة الحركة بلا استقرار.

تضايق الرجل من سخرية الفارس، لكنه
تمالك نفسه وأجاب، إني لعلى يقين من وجود يوطوبيا
هناك وإن تكن الخريطة القديمة قد خذلتني فإني
لواصل إليها بما معي من آلات الرصد العلمية "بالبوصلة
والتيودوليت"

قال الفارس لست أنصحك بالاندفاع في تلك
المغامرة القاسية وخاصة أن معك هذه السيدة. إني معجب
بجرأتها الفائقة، ولكن ألست ترى معي أن مكان الزهور
الجميلة أن يكون البساتين الدافئة وليس هذه الأصقاع
القاحلة وسط الثلوج.

ضايق المرأة أن رأت الفارس غامضا لا يسبر له غور بينما أحست بأنه يكشف عما بنفسها .

وهنا أجابت المرأة قائلة : عفوا أيها الفارس . إني لا أعتبر ما تقول مديحا فلست زهرة ، وإنما أنا امرأة جل رغبتها الوصول إلى بلاد يوطوبيا ، وكانت صادقة حقا فيما تقول إذ ما كان يخطر ببالها أن تترك رجلها وحيدا أو أن ترتد عن عزمها بعد أن سارت هذا الشوط البعيد ، إلا أنه كشف للرجل أنها في قرارة نفسها تحن إلى الرجوع إلى حيث الدفء والاستقرار لسبب خفي لم يدرك له كنها حيث لم تكن المعرفة قد وصلت به إلى كشف الحجاب عن هذا السر المجهول .

إنها كانت تحمل منه جنينا في أحشائها .

لم تكن لتخبره لعلمها أنه إن درى بذلك ترك رحلة العمر ، فيفقد بذلك كل معنى للحياة

أدرك الرجل أن عليهما أن يفترقا ، ورجاها أن تقبل الرجوع عن الاستمرار في هذه المخاطرة بعد أن ضلا الطريق .

لم يكونا في حاجة إلى مجاملة أو تقيد باعتذارات حيث كانا يقرآن صفحة نفسيهما كما لو كانتا كتابين مفتوحين وعلى هذا فقد اتجه بالرجاء إلى الفارس أن يصحبها إلى عاصمة العواصم وقبل الفارس واعدا إياه بإيصالها بكل حفظ وأمان .

هكذا افترق الرجل والمرأة وقلباهما طافحان ألما وحسرة

ذهبت المرأة والفارس مخلفين الرجل وراءهما يجهد في حساب الزوايا وأخذ الأسمات والأرصاد بالبوصلة والتيودوليت باحثا عن الطريق المفقود .

ظل متبعا آلات الرصد هذه طول اليوم ليجد نفسه آخر النهار في ذات البقعة التي بات فيها هو والمرأة في الليلة السابقة أمام ذلك الجذع الغريب .

أوقد نارا وما عتم لهبها أن جعل ظل هذا الجذع على الجبل يتراقص من جديد فكان من يأسه أن وجد نفسه يخاطب ذلك الظل .

الرجل : من أنت ومن تكون هل أنت الشيطان .

الظل : وماذا لو كنته .

الرجل : خبرني هل لك حقا قرون الماعز وحوافره .

الظل : يا للسخف والهراء . كيف يصدر منك هذا السؤال وأنت رجل ذكي بل إنك في الحقيقة عالم من العلماء .

الرجل : إذن لم لظلك قرون .

الظل : أعجب لكم يا بني الانسان . قصاراكم أن تعطوا شكلا لما لا شكل حتى تفقهون أو لا تفقهون . ألا تعرف إني من نار . ألا تعرف أنه لو اتخذت النار شكلا واحدا لبردت وماتت .

أنظر إلى اللهب أمامك هاك كليوباتره وهذا قيصر . نابليون . الإسكندر . راسبوتين .

الرجل : هذا حسن . ولكن كيف يمكنك أن تظهر للبشر ما لم تتخذ شكلا يعرفون به عليك

الظل : قلما احتاج الأمر إلى أن أتجشم مثل هذا الجهد فإن كلا منهم يتخيلني بالصورة التي تخيفه أكثر من أي شكل قد اتخذه بنفسي لأدخل الرعب في قلبه واجعله يتبعني حيث أريد .

الرجل : عجبا أن صوتك ليس عني بغريب .

الظل : أتذكر رجلا أعور كان يقف في إحدى حارات المدينة يبيع الأطفال " نبلا " ليقتلوا بها العصافير .

الرجل : نعم أذكره لقد اشتريت منه "نبلة" رميت بها عصفورا فأخطأته وكسرت زجاج شباك

الجيران . أكاد أحس بوقع الضربات التى
تلقاها جسمى الصغير للآن يا إلهى كان
صوته مثل صوتك .

الظل : وصبيان كانا يجلسان على مقعد واحد فى
المدرسة أتذكر كيف كان أحدهما
يملى خطابات سباب للأساتذة بينما كان الآخر
يكتب بيده اليسرى كيلا يعرفه المدرسون

الرجل : نعم أذكر . لقد كان لجارى فى المقعد
مثل صوتك .

الظل : أتذكر شابا أنيقا كان يرشق وردة حمراء
فى عروة سترته ويتحدث دائما عن مغامراته مع
الجنس اللطيف مما كان يجعله موضع حسد
جميع الزملاء من الشبان

الرجل : نعم أذكر لقد حاولت مرة أن أقلده فى مغامراته

وافتضح الأمر وكدت أقع فى إشكال .
ولكن يا إلهى ! كان صوته مثل صوتك .

الظل : أتذكر رجلا ....

الرجل : يا رب السماء إنى أذكر جيدا . ما أنت إلا ذلك
الفارس لقد عرفت الآن لم ذهبت المرأة ....
أيها الشيطان .... (أخذ الرجل البلطة يضرب
بها الجذع فى حنق شديد)

الظل : لا . لا . لا . أتترك قليلا من (الأدرنالين)
يجرى فى عروقك يعميك حتى تضرب
جذعا من الحجر وأنت رجل ذكى بل إنك
فى الحقيقة عالم من العلماء .

الرجل : أصبت إنى آسف ..... إنك لتجد فى خير
الرجال بقايا من رجل الكهوف .

الظل : ما قصدت أن أخدش كبرياءك ، خل عنك

الرجل : ولكني لست أدري لم تلاحقني منذ صباي حتى
في المنام. طاردتني في أحد أحلامي وكنت تدفع
عجلة ذات كلابات ولها أصابع لتقبض على
رجلي وكنت كلما قاربتني كلما ثقلت رجلاي.

الظل : ولكنك هربت مني أخيرا إذ صحوت من النوم.

الرجل : ومرة أخرى كنت تجذبني نحو منزل معتم أمام
بابه نور أحمر وله سور من الحديد وقد اكتست
أرض حديقته بأوراق الشجر الجافة يجري عليها عفاريت
فيسمع لأقدامهم وقع تنخلع له القلوب، وقد
جذبتني كالمغناطيس حتى التصقت بالباب
تحاول ادخالي منه.

الظل : ولكنك هربت مني أخيرا إذ صحوت من النوم.

الرجل : قل لي بحقك ماذا فعلت بك حتى تلاحقني
طوال هذه الأعوام. آناء الليل وأطراف النهار.

الظل : لعلك لم تنس ولدا كانت أمه تقص عليه
نبأ القديسين وما أتوه من معجزات فرجاها أن
لا تستمر قائلا "كفى بالله يا أمي فإني مؤمن
ولست في حاجة إلى حكايات المعجزات"

الرجل : لقد قلت هذا لأمي وأنا صغير.

الظل : فاعلم أنك قد خرجت من ذلك الحين
من نطاق الأمان الذي يضربه الناس حولهم من
خرج منهم من دائرته وقع في شباكي كالذباب
حين يسقط على نسيج العنكبوت.
خرجت لتنازلني في ميداني، كلما أكاد
أقبض عليك تنسل مني كشعرة من العجين
إلى أن وقعت أخيرا في قبضتي بعد لأي.

الرجل : خبرني هل أوصلت المرأة إلى البيت.

الظل : كلا لم تدعني إذ تركتني بالوادي الأخضر

فقد رغبت في البقاء بكوخ الفلاح .

الرجل : أرجو أن تسري عنها صحبة امرأة الفلاح .

الظل : الفلاحة لم تعد هناك . لقد ذهبت إلى عاصمة العواصم .

الرجل : وفي أي شأن ذهبت المسكينة لعلها ليست مريضة .

الظل : إنها الراقصة الأولى في مسرح الحمراء . لقد أصبحت أعظم راقصة في العالم لرقصة الكعوب .

الرجل : يا للغرابة إنها كانت بالأمس تتعثر في الحذاء ذي الكعب العالي واليوم هي أكبر الراقصات .

الظل : أعجب من ذلك أن تلقي امرأتك عصى الترحال في كوخ الفلاح بعد كل هذا الصعود .

الرجل : ما وجه الغرابة في ذلك .

الظل : تقول أنها لم تشعر بأن الحاجة إلى وجودها في

أي مكان سواه كانت أقوى منها فيه . والأدهى من ذلك أنها أحبت المطبخ لأن الفرن فيه مفتوح يجعلها تشم رائحة الخبز أثناء الخبيز .

الرجل : خيرا فعلت ، كم أود لو تتاح الفرصة لكل بني الانسان أن يشموا تلك الرائحة ليفيقوا فيتخلصون من أحابيلك ، لكن أنى لهم ذلك والفلاحون تكتنفهم رائحة الخبيز طول الوقت ، فلم تعد تشمها أنوفهم وأهل المدن يخبزون في أفران كهربائية محكمة الإغلاق فلا يشمونها على الاطلاق .

الظل : كأني بالعالم الفذ يصبح رجعيا ، يريد أن يرجع بالناس القهقرى إلى الخبز والأفران العتيقة بدلا من السير بهم إلى الأمام . يعطيهم غذاءهم مركزا في حبوب .

الرجل : نعم نعم نعطيهم الآن غذاءهم في حبوب فيتسون الخبز، ثم نعطيهم الرصاص بدلا من هذه الحبوب، فلا يدرون ماذا هم بأنفسهم فاعلون، يا لها من خطة محكمة الأطراف.

الظل : شد ما أنتم يا بني الإنسان ناكرون للجميل دائماً. أعطيتكم الأفران الكهربائية فاتهمتني بما تدعيه، ونسيت أني بالكهرباء أعطيتكم النور.

الرجل : إن كنت توصلت إلى قلب الأوضاع فجعلت من ليل الناس نهارا بالكهرباء فلا تنس أنهم أصبحوا يستخدمون ذات الكهرباء في نقل الصور باللاسلكي. ولن يلبثوا أن يرسلوا صورتك أنت نفسك من ملايين النسخ عبر الجبال والمحيطات إلى جميع جهات العالم،

يعلقونها على جدران الحوانيت فتصبح صورتك موحدة هي في طوكيو هي هي نفسها في برلين كما هي في القاهرة ولندن وباريس. فلا تعود تخيف حتى الأطفال.

الظل : هون عليك. إن التقوى إنما هو جزء من خطتي وتقديره في حسباني.

الرجل : عجبا كيف تتفق خطتك مع هذا الوضع المعيب

الظل : إن هذا هو سري الخاص الذي لم أبح به لمخلوق. إنك ذكي يا رجل. ولكن أما وقد وقعت في يدي فسأفضي به إليك.

الرجل : (مقتربا من الجذع) أحقا ما تقول؟ إنه لعظيم أن أعرف سر الشيطان.

الظل : اقترب اقترب، ألا تعلم أن الوديان تردد الصدى فتحمل الصوت إلى بعيد.

لرجل : (مقتربا) ها انا ذا .

لظل : (فى همس عميق) أدركني الهرم، أصبحت عجوزا .

لرجل : يا لله ماذا تقول ؟

لظل : إنه الواقع . لم أعد أحفل بتتبع الأطفال فى الحارات أو أن أجلس مع صبية المدارس فى الفصول . لم أعد أحفل بالتعامل مع الناس بنفسي مباشرة كل على انفراد ، فأقمت لنفسي عملاء فى الأرض واحد لكل مائة مليون ولذا وجدتني مضطرا إلى جعل الناس كلهم متشابهين فى طوكيو هم نفسهم فى برلين كما هم فى القاهرة ولندن ونيويورك وباريس . حتى يمكن إسناد أمورهم إلى هؤلاء العملاء . أرأيت إذن كيف أن توحيد صورتى كان جزءا من خطتى .

الرجل : ألا تخشى أن يقوى عملاؤك على الأرض فيخلعوا عنك سلطانك .

الظل : لا عليك فقد انتقيتهم أعمياء القلوب ممن اتسعت نفوسهم لشهوات الملايين مجتمعة انهم يبغون القوة وسأزودهم بها فيدمر بعضهم بعضا حتى يفنوا أجمعين .

(يرسل كرة لامعة بحجم البرتقالة فى الهواء يلعب بها)

الرجل : ما هذه الكرة التى تقذف بها فى الهواء ؟

الظل هذه مليون فدان من جهنم مضغوطة فى هذه البرتقالة الصغيرة إن ألقيت أطلق سعيرها . هى هديتي لأقوى العملاء .

(يردفها بأخرى فى حجم البيضة لاعبا بالاثنين)

الرجل : وكم فدانا تحتوى هذه الأخرى .

الظل : مائة مليون فدان من جهنم مضغوطة فى

هذه البيضة لمن يليه (يشفعهما بثالثة في حجم البندقة)

الرجل : وهذه البندقة لعلك ستقول لي أنها ألف مليون فدان من جهنم لثالث العملاء في الترتيب.

الظل : هو ذاك إنها كما تقول ألف مليون فدان من جهنم لثالث العملاء.

الرجل : إن هذه اللعبة بدأت تثير أعصابي ، هلا وقفت عن هذا المزاح .

الظل : (مرسلا كرة رابعة في حجم اللؤلؤة يلهو بالأربعة في الفراغ) أنظر أليس صقلها آية من الإعجاز إنها مليون مليون فدان للأضعف الأخير (يشتد دفعه للكرات في الفضاء)

الرجل : يخيل لي أنك جاد في هذا المزاح .

الظل : إن البشر لم يعد يثير اهتمامي . لقد أصبحوا

جميعا كتلا كبيرة من عناصر حقيرة قميئة تؤذي العين . وإنك لأعلم العارفين فإنك ذواقة للجمال .

الرجل : ليت لي القدرة على الإسراع بالنزول إلى الناس فأحذرهم من ألاعيبك الجهنمية .

الظل : لقد سبقك منذ القدم رجال أمهر منك بكثير حذروهم ، وما استمعوا إليهم افتراهم إليك ينصتون .

الرجل : كم كنت أحمق حين أضعت الوقت الثمين جريا وراء حجر الفلسفة زعما مني أن الذهب سيسعد الناس بينما كان أخلق لي أن أذهب مباشرة إلى يوطوبيا حتى أجد الحقيقة، قد كان يمكن حين ذاك أن أحصل على القدرة التي تجعلهم يصيخون حين

انذرهم بما ينتظرهم من سوء المصير.

الظل : الآن وقد أخفقت ولم تعد لك تلك القدرة ، أود أن أخبرك انك سببت لى انزعاجا شديدا باقترابك من يوطوبيا إلى هذا الحد. إذ أنك لو وصلت إليها لاشتدت متاعبى وأنا عجوز (هنا خبت النار تاركة المكان فى ظلمه حالكة)

أين أنت يارجل ؟ أوقد النار حتى اراك

(يتلمس الرجل فى الظلام ...... تسمع قرقعة تكسر الثلوج وتسمع صرخة تدوى لها الوديان)

لقد زحفت الثلوج الأبدية إليك فابتلعتك أيها الرجل ، لقد

هربت منى فى آخر لحظة كسابق عهدك حين كنت تصحو من النوم والآن اخترت أن تموت بحزن) لقد انتهت متاعبك الآن بينما على أن أمضى فى ذاك النضال الطويل على مدى الأجيال .

بزغ القمر فألقى ظل الجذع على الجبل وكأنه ظل رجل نائم بلا حراك .

